

فن الزخرفة المعمارية بمدينة سدراتة الإسلامية

الدكتور/ محمد لخضر عولمي
د. جامعة قلمة

تهديد

تعد مدينة سدراتة من المواقع الأثرية المهمة بالمغرب الإسلامي، و رغم أن الحفريات الأثرية لم تمس سوى مساحة صغيرة من الموقع، فإنها كشفت عن فن إسلامي فريد من نوعه، ساهمت في تشكيله الجغرافيا و الظروف التي شيدت خلالها هذه المدينة.

تقع المدينة على بعد 14 كم جنوب من مدينة ورقلة، تغطيها رمال الصحراء، فتكشف العواصف الرملية عن جزء من أطلالها من حين إلى أخرى، و لكن سرعان ما تغطيها مرة أخرى. تمتد أطلال المدينة، من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي على امتداد 2 كم، أما عرضها فلا يزيد عن 600 م، و هي مكونة من عدة تجمعات سكنية على هيئة قصور يقع كل واحد منها فوق تلة، و تربط بينها طرق عديدة تخترق المناطق الفلاحية¹.

بدأت هذه المدينة تكشف عن أسرارها منذ نهاية القرن التاسع عشر، و كان السيد فيكتور لارجو (V. Largeau) أول من نقب بها سنة 1877، وكشف على عدة منازل مربعة الشكل و بعض القطع من الجص.² جاء بعده السيد هارولد (H. Tarry) الذي كشف على مسجدا والعديد من المنازل، وعن بعض الغرف من مبنى واسع يعتقد انه قصرا او محكمة يقع في أقصى شمال المدينة، واستخرج كمية كبيرة من الزخارف الجصية التي كانت تكسو جدران تلك الغرف وبعث بها كما يقول إلى متاحف الجزائر وقسنطينة ومتحف التروكاديروا (musée du trocadéro) ببائيس، مضيفا أنه بعث بحمولة جملين من القطع الجصية إلى مدينة الأغواط.³ استمرت التنقيبات في هذا القصر من طرف السيد بول بلانشي (p. Blanchet) سنة 1892،⁴ ثم المهندس فوشي (Fauchet)،⁵ والسيدة مارغريت فان برشم (M. Van Berchem).⁶

إلى جانب القصر السابق الذكر، هناك معلم ثاني من المدينة، أمدنا بكمية هامة من الزخارف الجصية، وهو القصر المحصن الواقع في أقصى شرق المدينة، والذي كشفت عنه السيدة مارغريت فان بارشم (M. Van Berchem) أثناء الحفريات التي قامت بها في الموقع سنة 1951-1952.⁷ يبدو مما سبق أن مجمل الزخارف الجصية لمدينة سدراتة مصدرها القصر الشمالي الذي

كشف عنه السيد هارولد تاري، والقصر الشرقي الذي كشفت عنه السيدة مارغريت فان بارشم، مما يعني أن فن مدينة سدراتة نعرفه من خلال ما عثر عليه من زخارف بهذين المعلمين، لذلك فإن معارفنا عن فنها تبقى محدودة و جزئية، لأن ما لدينا من زخارف لا يمثل سوى نسبة جد ضئيلة مما قد تحويه هذه المدينة، و التي لا تزال بكاملها تحت رمال الصحراء ولم يكشف عنها بعد.

1 - نبذة تاريخية عن المدينة

إن المعطيات التاريخية حول سدراتة تكاد تكون منعدمة، والمقتطفات القليلة التي أوردها المؤرخون والجغرافيون تزيد الأمر تعقيدا. أغلب المصادر التاريخية لا تتحدث مباشرة عن سدراتة، وإنما عن مدينة وارجلان، وعندما يذكر اسمها يكون مقترنا بوارجلان، مما أدى إلى الخلط والتداخل بين المدينتين، وبالتالي إلى طرح إشكالية التسمية، وفي هذا الصدد يتساءل الأستاذ علي حملاوي قائلا « فهل وارجلان هي سدراتة، أم سدراتة هي وارجلان، وكيف نفسر هذا التداخل؟ »⁸.

يتحدث عبد الرحمان بن خلدون عن تأسيس وارجلان إلا انه لا يذكر سدراتة،⁹ وفي موضع اخر يتحدث عن المنطقة فيقول بأن ببلاد ريغ حوالي ثلاثمائة قرية تقع على ضفاف الوادي الذي ينحدر من المغرب إلى المشرق.¹⁰ هذه العبارة الأخيرة يمكن أن تفسر لنا هذا التداخل و الخلط بين المدينتين، فوارجلان وسدراتة كانتا إحدى قرى أو مدن هذا التجمع السكاني الكبير بمنطقة وادي ريغ.

يرجح أغلب المؤرخين، تأسيس المدينة إلى ما بعد سقوط الدولة الرستمية سنة 296 هـ / 909 م على يد الفاطميين،¹¹ والشئ المؤكد ان المدينة كانت قائمة في الفترة التي شهدت قيام ثورة أبي يزيد على الفاطميين، حيث كانت تأتيه إمدادات الطعام من سدراتة كما يشير إلى ذلك أبي عبد الله محمد الصنهاجي.²¹ أما السيد جون لوتيليو (J. Lethielleux) واعتمادا على مصادر غير معروفة، يقول أن أولى المجموعات الإباضية قدمت إلى منطقة واد مية سنة 39 هـ / 658 م، و قاموا بتأسيس اول تجمع سكاني بالمنطقة أطلق عليه تسمية تميمون، و في سنة 41 هـ / 621 م قدمت مجموعات أخرى من المهاجرين الإباضيين يقود إحداها الشيخ أبو حفص الهارب من جبل نفوسة، وقام بتأسيس مسجدا بموقع إسدراتن يوم 23 محرم سنة 42 هـ / 662 م وبنيت حوله المساكن وبذلك ظهرت مدينة سدراتة إلى الوجود.³¹

إذا كان الغموض لا يزال يكتنف تاريخ تأسيس المدينة، فمن المرجح كما تقول السيدة مارغريت فن بارشم، أن الإباضيين لما فروا من مدينة تيهرت ولجؤوا إلى الصحراء، لم تكن منطقة

سدراتة صحراء قاحلة، بل من المحتمل جدا أنهم وجدوا مدينة بربرية قديمة نهضوا بها بفضل خبراتهم،⁴¹ وإلى نفس الرأي يذهب الأستاذ مسعود مزهودي.⁵¹ ونظرا لموقعها على الطريق التجاري الذي يربط المغرب ببلاد السودان، نشطت الحركة التجارية، وبفضل ما كانت تدر عليها من أرباح، ازدهرت الحركة العمرانية والفنية. وتم إنجاز أعمال زراعية ضخمة تمثلت في حفر الكثير من الآبار ومد الكيلومترات من قنوات الري.⁶¹ الأمر الذي جعل المنطقة والمدينة تنعم بالرخاء والازدهار إلى غاية النصف الثاني من القرن عشر الميلادي، ففي سنة 1075 م، سير الأمير الحمادي المنصور ابن الناصر، حملة عسكرية للاستيلاء على ثروات المدينة وتحويل الطرق التجارية نحو القلعة وبجاية، وقد صادفت هذه الحملة اضطرابات بالمنطقة، منعت السكان من تنظيم الدفاع عن المدينة، الأمر الذي أدى إلى التدمير الكلي للمدينة وتقتيل سكانها وحرق مزارعها وردم قنواتها، فهاجرها أغلب سكانها إلى منطقة وادي ميزاب، ولجأ البعض الآخر إلى مدن المنطقة التي لم يصيبها الدمار كمدينة نقوسة،⁷¹ ولم يبق إلا القليل من سكانها للعيش في المدينة المخربة، هذا إلى غاية سنة 673 هـ / 1274 م حيث خربت المدينة كلياً،⁸¹ وهجرت نهائياً ولفها طي النسيان.

أما المعطيات الأثرية القليلة التي وصلتنا، لا تسمح بتحديد تاريخ بناء المدينة، فبعض العناصر المعمارية المكتشفة بها، مثل العقود الحذوية، و التيجان ذات الأطراف المقطوعة (Chapiteaux à pans coupés) والحنايا الركنية المفصصة، فهي مشابهة لتلك التي كانت مستعملة بإفريقية منذ القرن التاسع الميلادي،⁹¹ أما الكتابات القليلة التي عثر عليها، فهي بالخط الكوفي المورق، ومن المرجح أنها تعود إلى القرن العاشر أو الحادي عشر الميلادي،¹⁰² وفي هذا الصدد تقول السيدة مارغريت فان برشم، أنه من خلال أسلوب العمارة والكتابات الكوفية، يمكن إرجاع هذين المعلمين من مدينة سدراتة إلى القرن الحادي عشر وربما بداية القرن الثاني عشر الميلادي.¹²

2 - التصميم العام للزخرفة

كما سبقت الإشارة إلى ذلك فإن مجمل الزخارف التي وصلتنا تعود إلى معلمين، وهما القصر او المحكمة الواقعة بشمال المدينة التي كشف عنها السيد هارولد تاري، والقصر الواقع بشرق المدينة الذي كشفت عنه السيدة مارغريت فان بارشم.

اقتصرت الزخرفة في هذين المعلمين، كما نشاهد ذلك على بعض الصور من الأرشيف،²² على كسوة الأجزاء العلوية من الجدران، بينما تركت الأجزاء السفلية ملساء خالية من الزخرفة، و لا تمتد إلى مستوى الأرضية سوى أطر الأبواب والحنايا.

عموما الأجزاء العلوية من الجدران المزخرفة، بارزة بثلاثة سنتيمترات عن الأجزاء السفلية الملساء، و تبدأ الزخرفة بشريط مسنن (moulure denticulée) تقوم عليه لوحات زخرفية، مكونة في غالب الأحيان من شبكات من المعينات الهندسية، أو المربعات، أو الدوائر، مزينة بعناصر نباتية مجردة، وأحيانا أخرى بلوحات من دوائر متماسة أو متقاطعة مزينة بدورها بنفس العناصر النباتية السابقة الذكر. و في بعض الأحيان تكون مرفقة بجامات كبيرة الحجم، أو ببوائك من العقود الصماء (Arcatures)، ولم تقتصر هذه الزخارف على الجدران، وإنما امتدت لتزين العقود وحتى التيجان.³²

إن زخرفة عمائر مدينة سدراتة بهذا الأسلوب، أضفى عليها توازن وانسجام وخفة نتيجة المزج الموفق بين المساحات المزخرفة والمساحات الملساء، وهذا ما يميزها عن الزخارف الجدارية لمدينة سامراء والتي غالبا ما شُبهت بها،⁴² غير أن الزخرفة في مدينة سامراء تكسوا الجدران كليا إلى غاية الأرضية، مما يجعلها تتميز بنوع من الثقل والاكتظاظ إذا ما قورنت بزخارف مدينة سدراتة.

3 - مواد و اسلوب الزخرفة

انجرت زخارف مدينة سدراتة على مادة الجص كليا، هذه المادة التي كانت معروفة بالمنطقة منذ عهد الأغالبة،⁵² وأصبحت المادة الأساسية في الزخرفة الإسلامية في عهد العباسيين بانتقال مركز الخلافة من دمشق إلى العراق، الأرض ذات التقاليد العريقة في استعمال هذه المادة، ومن العراق انتقل استعمال الجص إلى مصر، ومنها إلى إفريقيا والمغرب الإسلامي والأندلس. والجص المستعمل في سدراتة هو نفسه الذي يزال يستعمل إلى اليوم في المنطقة، و الذي يطلق عليه إسم « تيمشنت ».

تم إنجاز هذه الزخارف بواسطة النحت أو النقش، والذي يكون في غالب الأحيان بشكل مائل، كما هو الحال بالنسبة لطريقة النحت على الخشب، والتي لا تزال تستعمل في المناطق البربرية إلى يومنا هذا. وهذه التقنية كانت منتشرة في أغلب المناطق المطلة على حوض البحر الأبيض المتوسط، بما في ذلك شمال إفريقيا، و كانت منتشرة بشكل واسع في شرق الجزائر، وبشكل خاص بمنطقة تبسة وشمال الأوراس،⁶² وهي نفس التقنية التي استعملت في تزيين الكنائس البربرية المشيدة بالمنطقة خلال القرنين الرابع والخامس الميلاديين.⁷² وهي تقنية تتلائم مع التشكيلات الزخرفية الهندسية.

4 - التشكيلات الزخرفية

تغطي الأجزاء العلوية من جدران مباني سدراتة، لوحات زخرفية واسعة، تتمثل أساسا

في شبكات من المعينات الهندسية، والدوائر، والمضلعات المتنوعة، تزينها عناصر نباتية، أو جامات كبرى تتناوب مع الأشكال السابقة. وفي حالات نادرة، بوائك من العقود الصماء مزينة بنفس العناصر النباتية. تقوم هذه اللوحات بمختلف أنواعها، على حافة مسننة، وبارزة قليلا عن المستوى السفلي من الجدران، وتؤطرها إطارات مكونة من أشربة تتناوب فيها المربعات الغائرة والبارزة، ويتوسطها شريط من الحبيبات.

4 - 1 شبكات المعينات الهندسية

و هي أهم التشكيلات الزخرفية المستعملة في تزيين مباني المدينة، هو تشكيل زخرفي كان استعماله شائعا بشمال إفريقيا. فالمواقع الأثرية الرومانية، كما هو الحال في تيمقاد ولباز، تزخر باللوحات الحجرية المزينة بهذه الشبكات من المعينات الهندسية.⁸² وهو تشكيل زخرفي كان معروفا قديما في بلاد فارس،⁹² كما استعمل في تزيين القصور الأموية ببادية الشام كما هو الحال في قصر الحير الغربي.⁰³ وقد شهد هذا النوع من الزخرفة، استعمالا واسعا في مدينة سدراتة، كما تنوعت أشكاله وتصاميمه بشكل لم يسبق له مثيل له في الفن الإسلامي، ويمكن تقسيمها إلى نوعين.

النوع الأول (شكل رقم 01، صورة رقم 01)، وهو عبارة عن شبكات مكونة من معينات مشكلة بواسطة خطوط عمودية و متموجة، لا تتقاطع فيما بينها وإنما تتلامس بحيث تشكل مساحات معينة الشكل، تتوسطها زهيرات خماسية الفصوص، تكون في نفس الاتجاه أو في اتجاهين متعاكسين.

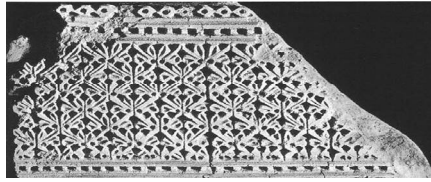


شكل رقم 01

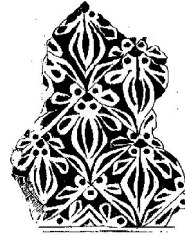
صورة رقم 01

أما النوع الثاني، فهو مكون من مربعات كاملة، موضوعة بشكل معينات، وهي مشكلة

بواسطة تقاطع أشرطة مكونة من خيطين يتوسطهما شريط من الحبيبات، ويمكن تمييز في هذا النوع شكلين من المعينات (شكل رقم 02 و صورة رقم 02)



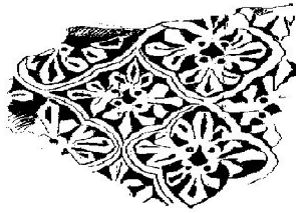
صورة رقم 02



شكل رقم 02

4 - 2 شبكات المضلعات

و تعد امتدادا لشبكات المعينات الهندسية، وهي مكونة بواسطة مضلعات، وكل ضلع مشكل من انصاف مضلعات محدبة، وبالتالي فإن كل اربعة مضلعات تحصر فيما بينها مساحات ذات ثمانية أضلاع مقعرة (شكل رقم 03)، و تتوسطها أربعة زهيرات تلتحم بواسطة قواعدهما في مركز المضلع، وفصوصها الثلاثة الباقية تكون في اتجاه احد فصوص المضلع.



شكل رقم 03

4 - 3 شبكات الدوائر

و هي كشبكات المعينات الهندسية والمضلعات، استعملت كأرضية للعناصر النباتية، وهي أيضا من الأشكال الزخرفية التي كانت معروفة في المنطقة، استعملت في زخرفة العماثر الرومانية، و الكنائس البربرية، وفي لوحات الفسيفساء، وتعد ثان أهم تشكيل زخرفي في مدينة سدراتة بعد شبكات المعينات الهندسية، وتتميز بالتنوع الكبير في تصاميمها، و يمكن تقسيمها

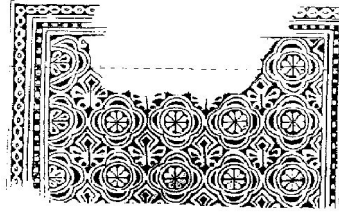
إلى نوعين أساسيين : الدوائر المتماسّة، والدوائر المتقاطعة.

تعد شبكات الدوائر المتماسّة، التصميم الأكثر بساطة، وهي تتكون من صفوف من الدوائر جنب إلى جنب (شكل رقم 04)، وهي مكونة من دائرة مركزية تحتضن زهيرة خماسية الفصوص، تحيط بها حلقتان ملساوان، ثم حلقة ثالثة مزينة بمربعات صغيرة غائرة تتناوب مع مربعات بارزة، ثم حلقتان ملساوان خارجيتان، أما المساحة المحصورة بين أربعة دوائر، فتحتضن زهيرة خماسية الفصوص.



شكل رقم 04

أو أنها تتكون من شبكة من الدوائر، وكل دائرة تحيط بها أربعة فصوص نصف دائرية (شكل رقم رقم 05)، وكل دائرة تتوسطها زهرة ثمانية الفصوص، بينما المساحة المحصورة بين كل أربعة دوائر، تزينها زهيرة خماسية الفصوص.

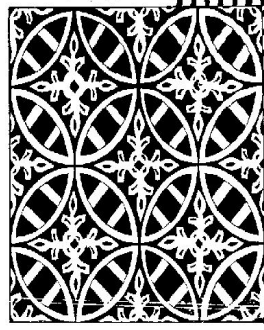


شكل رقم 05

أما شبكات الدوائر المتقاطعة، فهو الشكل الأكثر استعمالاً، وأكثر تعقيداً، ويقوم على أساس الدوائر المتقاطعة، وتتميز بتنوع الأشكال الهندسية المتحصل عليها من جراء ذلك، و تنوع العناصر النباتية التي تزينها، يمكن حصر الأشكال التالية :

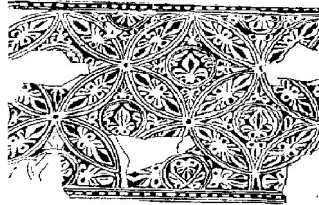
الشكل الأول : وهو الشكل الأكثر انتشاراً، ويتكون من دوائر متقاطعة، تحصر فيما بينها مساحات ذات اربعة أضلاع مقعرة، مزينة إما بزهرة وحيدة خماسية الفصوص، أو بأربعة زهيرات خماسية الفصوص (شكل رقم 06)، بحيث تبدوا على شكل صليب، أما المساحات لوزية

الشكل، فتزينها مربعات غائرة تتناوب مع مربعات أخرى بارزة.



شكل رقم 06

الشكل الثاني : وهو يشبه الشكل السابق في التخطيط، ويختلف عنه في العناصر النباتية التي تزيينه. فالمساحات ذات الأضلاع الأربعة المقعرة، تتوسطها دائرة تحتضن زهرة خماسية الفصوص، وزهرة ثمانية في اتجاه كل زاوية من زوايا ذلك المضلع (شكل رقم 07)، أما المساحات اللوزية الشكل، فتظم زهيرتين خماسيتي الفصوص، تشتركان في نفس القاعدة وفي اتجاهين متعاكسين.



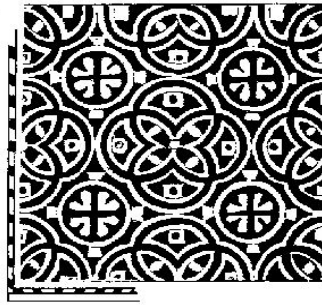
شكل رقم 07

تصميم الشكلين السابقين، هو تصميم كان شائعا في الزخرفة الرومانية، ولدينا نماذج منها من معبد الكابيتول بمدينة تيمقاد الرومانية (صورة رقم 03)، والاختلاف بينهما يكمن في نوع العناصر النباتية المستعملة في تزيينهما.



صورة رقم 03

الشكل الثالث : وهو الشكل الأكثر تعقيدا، و يتكون من مجموعة المضلعات رباعية الفصوص ناتجة عن تقاطع أربعة دوائر (شكل 08) وكل أربعة مجموعات تحصر فيما بينها، دائرة مزينة بزهرة مكونة من أربعة قطاعات على هيئة قلوب.



شكل رقم 08

4 - 4 الجامات

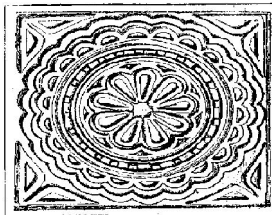
تعد الجامات من الأشكال الزخرفية المهمة في فن مدينة سدراتة، وهي غالبا ما تتناوب مع الأشكال السابقة لكسوة جدران مباني المدينة. وهي عبارة عن جامات كبيرة الحجم، تنتظم في جميع الحالات بداخل مربعات كبيرة، وتؤطرها أشرطة مزينة بمربعات صغيرة غائرة تتناوب مع مربعات بارزة، وتتميز بالتنوع الكبير في تصاميمها، ويمكن حصر الأشكال التالية.

الشكل الأول (صورة رقم 04) : وهو أبسطها، حيث أن الجامة تتكون من زهرة مركزية، تحيطها حلقتان ملساوان، ثم حلقة ثالثة مزينة بالمربعات الغائرة و البارزة المتناوبة، ثم حلقتان ملساوان أخريان، ثم حلقة أخرى غليظة مزينة بمعينات صغيرة، وأخيرا حلقة خارجية ملساء. بينما الزوايا الأربع للمربع الذي يحتضن الجامة، مزين بزواج من المراوح البسيطة.¹³



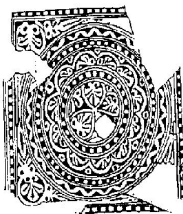
صورة رقم 04

الشكل الثاني (شكل رقم 09) : تحتل مركز الجامعة، زهرة اقحوان كبيرة، ذات تسعة فصوص مفرغة وتحيط بها خمسة حلقات متتالية، أوسطها مزين بالمربعات الغائرة والبارزة المتناوبة، وأخيرا حلقتان، كل واحدة مكون من 22 فصا دائريا.



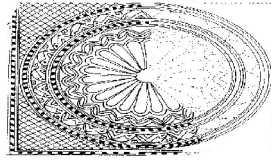
شكل رقم 09

الشكل الثالث (شكل رقم 10) : وهو مكون من حلقة مركزية صغيرة نوعا ما، تتوسطها مساحات قلبية الشكل، كل واحدة منها تحتضن زهرة خماسية الفصوص، تحيط بهذه الدائرة خمسة حلقات ضيقة،²³ ثم حلقة واسعة مزينة بفصوص دائرية، وكل فص مزين بنصف زهرة خماسية الفصوص، ثم خمس حلقات مماثلة للأولى، فحلقة واسعة ثانية مزينة بشريط منكسر، وأخيرا حلقتان ملساوان. أما زوايا المربع فهي مزينة بدائرة تتوسطها زهرة خماسية الفصوص.



شكل رقم 10

الشكل الرابع (شكل رقم 11) : وهو الشكل الأكثر تعقيدا فمركز الجامعة مكون من زهرة أقحوان كبيرة الحجم، ذات 22 فصا دائريا مفرغا ومكون من شريطين، تحيط بها حلقة عريضة مزينة بفصوص خماسية الفصوص، وأخيرا خمس حلقات متتالية للأولى، أما زوايا المربع فهو مشكل من شبكة من خلايا النحل.³³ تصميم هذه الجامعة يذكرنا بتصميم الأطباق النجمية، التي أصبحت لاحقا من الأشكال الزخرفية المميّزة لفن بمنطقة الغرب الإسلامي.



شكل رقم 11

إن استعمال الجامعات في الزخرفة المعمارية بهذا الشكل، لا نجد له مثيل في الأقاليم الإسلامية الأخرى، مما يؤكد ان هذا الشكل الزخرفي هو امتداد لتقاليد محلية في الزخرفة البربرية التي كانت تستعمل في تزيين الكنائس، و في تزيين الأثاث الخشبي، والذي لا يزال سائدا إلى غاية اليوم، إلا أنها تتميز بالبساطة إذا ما قورنت بتلك المستعملة في سدراتة.

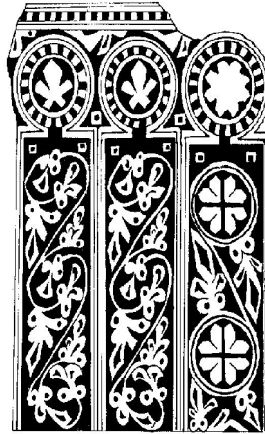
4 - 5 البوائك

إلى جانب التشكيلات الزخرفية السابقة، نجد بوائك العقود الصماء، و هو شكل زخرفي نادر، كشفت عنها مارغريت فان برشم بالقصر الشرقي.

وهي تبدو على هيئة صف من العقود الصماء (شكل رقم 12)، تزينها عناصر نباتية تختلف من عقد إلى آخر. ففي أحد العقود تكون المساحة المستطيلة والعمودية، مزينة بدائرتين فوق بعضهما البعض، وكل دائرة تتوسطها زهرة ثمانية الفصوص، ويربط بينها غصن نباتي مائل تتفرع منه زهيرتين خماسية الفصوص متعاكستين، أما العقد في حد ذاته، فيظم دائرة تتوسطها زهرة مماثلة للأولى. أما العقود الأخرى، فإن المساحة العمودية التي ينتهي بها العقد، مزينة بغصن نباتي يلتف بشكل حروف (S) متتالية، يضم بين حناياه زهيرات رباعية الفصوص تتناوب مع زهيرات خماسية الفصوص، أما العقد فتتوسطه زهرة خماسية الفصوص.

يعتبر هذا التشكيل الزخرفي، من المظاهر الزخرفية الإسلامية البحتة، والتي نجدها في مختلف الأقاليم الإسلامية و اقدم مثال عنها بالمغرب الإسلامي، هو إفريز من العقود الصماء التي تعلوا باب ميضأة جامع القيروان،⁴³ كما أنه من المظاهر الزخرفية الشائعة الأستعمال في

الأندلس، وبشكل خاص في أعلى واجهة محراب وبوابات جامع قرطبة.⁵³



شكل رقم 12

خاتمة

إن مجمل الدراسات التي تناولت فن مدينة سدراتة، تبقى ناقصة وجزئية، لأن الحفريات الأثرية لم تمس إلا نسبة ضئيلة من مساحة المدينة، ومجمل الزخارف المكتشفة مصدرها معلمين فقط من معالم المدينة وهما : القصر الشمالي والقصر الشرقي، وفي انتظار اجراء حفريات جديدة بالموقع، وكذلك بمدينة تيهرت، وطبنة التي عثر بها على قطعة زخرفية، زخارفها مماثلة لزخارف سدراتة كما يقول هارولد تاري، لذلك تبقى معلوماتنا عنها قليلة، يشوبها الغموض وكثير من التساؤلات.

إن الزخارف المكتشفة من مباني مدينة، تذكر البعض بزخارف القصور العباسية في سامراء، وذلك راجع إلى استعمال الزخارف بشكل متكرر مكثف، وعلى مساحات واسعة من الجدران كما هو الحال في قصور سامراء، إلى جانب إنجاز تلك الزخارف على مادة الجص، وهذه هو أوجه الشبه بين زخارف مباني المدينتين. أما بالنسبة للعارف لفنون منطقة شمال إفريقيا في العصور القديمة، فإن زخارف مدينة سدراتة لا تذكره بزخارف سامراء، وإنما بالزخارف البربرية التي تزين النصب والكنائس التي تعود إلى القرنين الرابع والخامس الميلادي، وبفن النحت على الخشب الذي يزال يمارس بالمناطق البربرية، كما ان التشكيلات الزخرفية، وبشكل خاص شبكات المعينات الهندسية، والمضلعات والدوائر المتشابهة وحتى الجامات، من الأشكال الزخرفية التي

كانت شائعة بالمنطقة، سواء كانت منقوشة على الحجارة، أو منحوتة على مادة الخشب وحتى على مادة الفسيفساء، وهي أساسا تصاميم هندسية، وهو الأمر الذي يميز الزخرفة البربرية منذ العصور القديمة.

غير أننا نلمس روح جديدة في تصميم زخارف مباني هذه المدينة، و هي الروح الإسلامية التي تميل إلى لكسوة الجدران المبني بشكل مكثف بحيث أنها تبدو وكأنها بساط يغطي تلك الجدران، وهو مل يطلق عليه مصطلح (le décor couvrant) أو الزخرفة الشاملة، إلى جانب الاعتماد على العناصر النباتية لتطعيم سطح الأشكال الهندسية، والتي تعد من الأشكال الأساسية في الفن الإسلامي، إلا أنها في هذه المدينة، اقتصر على عناصر معزولة تتمثل أساسا في الزهيرات ثلاثية وخماسية الفصوص، ملء سطح المساحات التي تشكلها مختلف مضلعات التشكيلات الهندسية التي رأيناها. وبذلك فهي تختلف عن التوريق النباتي الذي أصبح يميز الفن الإسلامي منذ عهد الأمويين. كما أن هذه العناصر النباتية، نحتت بطريقة جد محورة، وتتخذ شكلا هندسيا بعيدا عن شكلها الطبيعي، بحيث لا تمت بصلة لأشكالها الأصلية، وهو الاتجاه العام للفن الإسلامي الذي يميل نحو التجريد والابتعاد عن محاكاة الطبيعة. كما يظهر التأثير الشرقي في بوائك العقود الصماء والتي تعد أيضا من التشكيلات الزخرفية المميزة للفن الإسلامي.

فإذا كانت الصبغة العامة لزخرفة مباني المدينة توحى بروح إسلامية، فإن العديد من تفاصيل تلك الزخارف تضيف عليها صبغة قديمة تذكرنا بالفنون البربرية التي كانت سائدة بشمال إفريقيا، ومن المؤكد أن ذلك يعود إلى أن تقاليد فنية محلية بقيت حية في المناطق المنعزلة والبعيدة عن كبريات الحواضر الإسلامية، وبالتالي فهي كانت في منأى عن تأثيرات التيارات الفنية التي كانت سائدة في تلك الحقبة التاريخية.

هوامش البحث:

- 1 Van Berchem, M. « Sedrata : un chapitre nouveau de l'histoire de l'art musulman » *Ars Orientalis*, vol. VI, 1954, p. 160.
- 2 Largeau, V. *le pays de Rirha , Ouargla, voyages à Rhadames*, Paris, 1879, pp. 186-189.
- 3 Tarry, H. « Les villes berbères de l'oued Mya » *Revue d'Ethnographie*, t. III, 1885, p. 44.
- 4 حيث يقول انه كشف على 34 غرفة و 200 متر مربع من الزخارف الجصية، أنظر.
Blanchet, P. *Comptes rendus de l'Académie des inscriptions et belles lettres*, 4em Série, 1898, p. 520.
- 5 حصرية هذه الحفريات من الزخارف الجصية، معروضة حاليا بالمتحف الوطني للآثار بالجزائر العاصمة.

- 6 الزخارف الجصية التي جمعت خلال تلك الحملة معروضة حاليا بمتحف مدينة ورقلة، أنظر.
Van Berchem, M. « Le palais de Sedrata dans le désert saharien » Studies in islamic art and architecture in honour of professor K.A.C Creswell, Americain university presse, cairo, 1965, p. 18.
- 7 Van Berchem, M. « Deux Campagnes de fouilles à Sedrata (1951-1952) » Travaux de l'institut de recherches sahariennes, t. 10, 2em semestre, p. 135.
- 8 علي حملاوي « إشكالية الفن بمدينة سدراتة » الأيام الدراسية الأولى حول سدراتة، ورقلة من 23 إلى 26 أفريل 1997، ص. 27.
- 9 عبد الرحمان ابن خلدون، كتاب العبر، بيروت، 1968، ص. 96.
- 10 نفسه، ص. 199.
- 11 Marçais, G. L'architecture musulmane d'Occident : Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne et Sicile, Paris, Arts et Métiers graphiques, 1954, p. 55, Bourouiba, R. Cités disparues : Tahart, Sedrata, Achir, Kalaa des Béni Hammad, Série Art et culture, Ministère de l'information, Alger, 1982, p. 49.
- 12 ابو عبد الله الضنهاجي، أخبار ملوك بني عبيد و سيرتهم، تحقيق و تعليق احمد البدوي، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ص. 41.
- 13 Lethielleux, J. Ouargla : cité saharienne des origines au début du XX siècle, Paris, Librairie orientaliste Paul Geuthner, 1983, pp. 21-26.
- 14 Van Berchem, M. « Sedrata une ville du moyen- age ensevelie dans les sables du Sahara algérien » Documents algériens, n° 11, 1953, p. 5.
- 15 مسعود مزهودي، « تأسيس وارجلان و سدراتة من خلال الروايات التاريخية » الأيام الدراسية الأولى حول سدراتة، ورقلة من 23 إلى 26 أفريل، 1997، ص. 16.
- 16 Van Berchem, M. « Deux campagnes de fouilles à Sedrata (1951-1952) » Travaux de l'institut de recherches sahariennes, t. 10, , p. 130.
- 17 Lethielleux, J. op.cit, p. 133.
- 18 يتفق كل من J. Lethielleux و M. H. Duveyrier على هذا التاريخ، غير أنهما يختلفان حول هوية الشخص الذي قام بذلك، فالأول يذكر إسم المنصور بن فضل بن علي المزني ابن احد اعيان مدينة بسكرة، و الثاني يذكر إسم القائد المنصور المشرقي و الذي نجهل كل شيء عن هويته كما يقول، أنظر.
Lethielleux, J. op.cit, p. 139, Duveyrier, M. H. « Isdraten et le schisme ibadite » Revue d'ethnographie, 1883, t. 2, pp. 211-212.
- 19 Marçais, G. L'architecture musulmane d'Occident, p. 57.
- 20 علي حملاوي، «العناصر الزخرفية بمدينة سدراتة (وارجلان)» الملتقى الثاني للبحث الآثري و الدراسات التاريخية، أدرار، 29 ماي - 2 جوان 1994، ص. 32.
- 21 Van Berchem, M. « Palmettes, Rosaces et Bandeaux dans le décor de Sedrata » Memoriam

L . A. Mayer, VI, Jerusalem, 1964, p. 14.

22 Saladin, H. Manuel d'art musulman, Paris, 1907, t. I, fig. 152.

23 Marçais, G. L'architecture musulmane d'Occident, fig. 31.

24 Marçais, G. Manuel d'art musulman, Paris, 1926, t. I, p. 86.

25 Id, p. 60.

26 Marçais, G. « Art chrétien et d'Afrique et art berbère » Mélange d'histoire et d'archéologie de l'Occident musulman, Alger, 1957, t. I, p. 132.

27 Van Berchem, M. « Sedrata : un chapitre nouveau de l'histoire de l'art musulman » Ars Orientalis, vol. VI, 1954, p. 160.

28 شبكات المعينات التي ترجع إلى العهد الروماني، عبارة عن شبكات من المعينات الهندسية البحتة و أرضيتها عارية، و لا تحمل أي نوع اخر من الزخارف.

29 عثر بمدينة دغمان على دعائم تعود إلى القرن الثاني أو الثالث الميلادي، تزينها شبكة من المعينات الهندسية، تكسوها عناصر نباتية تتكرر في وسط كل معين كما هو الحال في زخارف مدينة سدراتة، أنظر.

Balbas, L. T. « Precedentes de la decoracion mural hispanomusulmana » Al-Andalus, 1955, vol. XX, fasc. 2, pl. 17-A.

30 Id, pl. 17-B

31 مبدأ تصميم هذا النوع من الجوامات لا يختلف تصميم جامات واجهة مسجد ثلاثة أبواب بالقبروان، و الذي يقوم على أساس مربع يتوسطه عنصر زخرفي رئيسي، بينما زواياه تزينها عناصر ثانوية، و الاختلاف بين النموذجين يكمن في نوعية العناصر النباتية المستعملة.

32 دائماً حلقتين ملسوين، ثم حلقة مزينة بمربعات غائرة و أخرى بارزة بشكل متناوب، ثم حلقتين ملسوين.

33 تقول مارغريت فان بارشم، أن شبكات خلايا النحل هذه، كانت من العناصر الزخرفية المستعملة في تزيين بعض اللوحات الجصية في مدينة سامراء، و مدينة نيشابور، لذلك يمكن اعتبار ذلك من العناصر الزخرفية القادمة من الشرق، أنظر.

Van Berchem, M. « Sedrata : un chapitre ..., » Ars-Orientalis, Vol. VI, p. 171.

34 أحمد فكري، المرجع السابق، شكل 57 و 58.

35 Marçais, G. Manuel d'art musulman, fig. 146 & 148.